



الوعي الإيثولوجي في كتاب الحيوان للجاحظ (باب طباع الكلب العجيبة)

أ.د.م / آمال يس عبد الخالق حسين

أستاذ الأدب القديم المساعد

بقسم اللغة العربية وآدابها

كلية البنات - جامعة عين شمس

amal.yassinhussien@women.asu.edu.eg

 10.21608/jfpsu.2024.306037.1368

This is an open access article licensed under the terms of the Creative Commons Attribution International License (CC BY 4.0). <http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/>



الوعي الإيثولوجي في كتاب الحيوان للجاحظ (باب طباع الكلب العجيبة)

مستخلص

عُنيت العديد من مؤلفات العرب بالحيوان، لكن يظل مُؤلف الحيوان للجاحظ أول موسوعة عربية في الإيثولوجي (علم سلوك الحيوان)، فقد تناول فيه الحيوان بصفاته وعرائزه وسلوكه وفق منظور علمي قوامه العقل، والاستدلال، والتجربة، والاستنباط. ويرجع الباعث على اختيار موضوع الدراسة إلى الرغبة في الخروج من بوتقة الدراسات الأدبية التقليدية، وذلك من خلال ربط تلك الدراسة بمجال معرفي آخر، والإفادة منه؛ لإثراء المكتبة العربية بدراسة علمية أدبية. وتكمن أهمية الدراسة في عنايتها بالبحث عن جذور الإيثولوجي (علم سلوك الحيوان) في التراث العربي.

وتهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على الوعي الإيثولوجي للجاحظ، ومصادره في باب طباع الكلب العجيبة في كتابه الحيوان، وإبراز إسهامات العرب في علم سلوك الحيوان التي دونوها في أشعارهم، وأمثالهم، وأحاديثهم، وقصصهم، وتجاربهم، وكانت تلك الإسهامات هي اللبنة التي شُيّدت عليها نظريات الإيثولوجي في زمننا المعاصر. واعتمدت في الدراسة على المنهج التكاملي الذي يأخذ من كل منهج من المناهج النقدية الأخرى ما يراه معينا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع نواحيها.

الكلمات المفتاحية: الوعي الإيثولوجي كتاب الحيوان، الجاحظ، طباع الكلب.

Ethical Awareness in Al-Jahiz's The Animal (Chapter on the Strange Nature of dogs)

Abstract

Many Arab works were concerned with animals, but Al—Jahiz' The Animal remains the first Arab encyclopedia in the science of animal behavior, in it, he dealt with animals with their characteristics, instincts, and behavior according to a scientific perspective based on reason, inference, and experience and deduction.

The motivation for choosing the subject of the study is due to the desire to break out of the crucible of traditional literary studies, by linking that study to another field of knowledge. And benefit from it to enrich the Arab library with scientific and literary.

Study, the importance of the study lies in its attention to searching for the roots of ethos and behavioral science Animals in Arab heritage.

The study aims to shed light on Al-Jahiz's ethical awareness and his sources in the chapter on the strange nature of the dog in his book The Animal, and to highlight the contributions of the Arabs to the science of behavior, The animals they wrote down in their poems, proverbs, conversations, stories, and experiences, These contributions were the building block; upon which the theories of ethnology were built in our time contemporary.

The study relied on the integrative approach, which takes from each approach other critical approaches are what he sees as helping to make integrated judgments on actions literary in all its aspects.

Keywords: Ethological awareness, Animal book, Al-Jahiz-Dog character.

مقدمة:

يُولد الحيوان وتُولد معه مجموعة من الطبائع أو الغرائز تمثل بالنسبة له ركنًا رئيسًا في حياته، وقد عُنيَت العديد من مؤلِّفات العرب بالحيوان، لكن يظلُّ مؤلِّف الحيوان للجاحظ أول موسوعة عربية في الإيثولوجي (علم سلوك الحيوان)، فقد تناول فيه الحيوان بصفاته وغرائزه وسلوكه وفق منظور علمي قوامه العقل، والاستدلال، والتجربة، والاستنباط.

ويرجع الباحث على اختيار موضوع الدراسة إلى الرغبة في الخروج من بوتقة الدراسات الأدبية التقليدية، وذلك من خلال ربط تلك الدراسة بمجال معرفي آخر، والإفادة منه؛ لإثراء المكتبة العربية بدراسة علمية أدبية.

وتكمن أهمية الدراسة في عنايتها بالبحث عن جذور الإيثولوجي (علم سلوك الحيوان) في التراث العربي.

وتهدف الدراسة إلى إلقاء الضوء على الوعي الإيثولوجي للجاحظ ومصادره في باب طباع الكلب العجيبة في كتابه الحيوان، وإبراز إسهامات العرب في علم سلوك الحيوان التي دونوها في أشعارهم، وأمثالهم، وأحاديثهم، وقصصهم، وتجاربهم، وكانت تلك الإسهامات هي اللبنة التي شيدت عليها نظريات الإيثولوجي في زمننا المعاصر.

واعتمدت في الدراسة على المنهج التكاملي الذي يأخذ من كل منهج من المناهج النقدية الأخرى ما يراه معينًا على إصدار أحكام متكاملة على الأعمال الأدبية من جميع نواحيها.

أما الدراسات السابقة فمنها:

- الكلب في شعر ما قبل الإسلام، عبد الإله عبد الوهاب هادي العرداوي، مجلة جامعة بابل، مج ٩، ١٤، ٢٠٠٤م.

- التجربة عند الجاحظ في كتابه الحيوان، حسن محمد علي الربابعة، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، م ٣، ١٤، يناير ٢٠٠٧م.

- الأمثال في كتاب الحيوان (دراسة فنية بيانية)، عبد العزيز محمد عويض الشراري، جامعة مؤتة، ٢٠١٥م.

- أدب وعلوم الحيوان في الحضارة الإسلامية، بشرى الصيد، خديجة بوصوفة، الجزائر، ٢٠٢٠م - ٢٠٢١م.

- الحيوان في الشعر العربي القديم من منظور أسطوري دراسة في كتاب (قراءة ثانية لشعرنا القديم لمصطفى ناصف)، هشام لعور، جامعة سكيكدة.

وقد اقتضت طبيعة الموضوع تناوله على النحو الآتي:

- المقدمة: تناولت فيها الباعث على اختيار الموضوع، وأهمية الدراسة وأهدافها، ومنهجها، والدراسات السابقة.

(١) الإيثولوجي (المفهوم - النشأة)

(٢) أنماط السلوك الحيواني

(٣) الجاحظ

(٤) كتاب الحيوان

(٥) طباع الكلب العجيبة في كتاب الحيوان للجاحظ

أولاً: النباح

ثانياً: الوفاء

ثالثاً: الانتباه

رابعاً: الأدب

خامساً: سلوكيات الصيد

سادساً: اللهات

- الخاتمة: تناولت فيها النتائج التي تم التوصل إليها.

- الهوامش

- المصادر والمراجع

(١) الإيثولوجي (المفهوم - النشأة) Ethology

الإيثولوجي Ethology هو علم الدراسات السلوكية الذي يُعنى بسلوك الكائن الحي في محيطه الفيزيائي والكيميائي والبيولوجي والاجتماعي، كما يُعنى بصفاته الطبائعية Ethological characters.^١

وقد نشأ هذا العلم بين الحرب العالمية الأولى ١٩١٤م-١٩١٨م، والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩م-١٩٤٥م باسم Ethology أخذاً من كلمة Ethos اليونانية التي تعني عادة أو سجية، والمقطع Ology بمعنى علم أو فن، أي العلم الذي يبحث في سلوك الحيوانات، وموضوعه معرفة الطرائق التي تستخدمها الحيوانات والطيور في البحث عن الطعام وتخزينها، وعاداتها في التودد والزواج، وطرائقها في التفاهم والاتصالات، ووسائلها في الانعزال والعلاج، وأسلوبها في التخفي والهروب، فضلاً عن التعرف على منهاجها الأسري، ونظامها في تحديد مناطق النفوذ، وتصرفاتها عند الخوف أو الهجوم أو غيرها.^٢

وكان العالم الإنجليزي تشارلز داروين أول من بحث هذا الموضوع، وأصدر كتاباً بعنوان التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوان The Expression of the Emotions in Man and Animals، كما بحث فيه أيضاً العالم الفسيولوجي الروسي إيفان بافلوف الذي اكتشف الانعكاسات الشرطية في الجهاز الهضمي للحيوان، وتطبيقها على الإنسان، وبناء على ذلك أسست بعض الجامعات الأوربية والأمريكية أقساماً خاصة لدراسة سلوك وسيكولوجية الحيوانات والطيور.^٣

قد يبدو مما سبق أن الإيثولوجي أو علم سلوك الحيوان وليد الغرب، لكن المتأمل في تراثنا العربي يلحظ أن الكتاب والعلماء الأوائل أسهموا بمصنفات عديدة في الحديث عن الحيوان، ويعد الجاحظ أول واضع لكتاب عربي جامع في طبائع الحيوان، وقد جاءت بعد عصره محاولات مختلفة لطائفة من العلماء في الحديث عن الحيوان مثل: حياة الحيوان للدميري (ت ٨٠٨هـ)، وعجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني (ت ٦٨٢هـ)، ويظل كتاب الحيوان للجاحظ كتاباً تفصيلياً في الإيثولوجي أو علم سلوك (غرائز) الحيوان، وفي كل مملكة من ممالكه، وكل جنس من أجناسه جمع فيه صاحبه بين العلم والأدب من خلال تناوله السلوك الحيواني عبر الأبيات الشعرية التي

تحدثت عن الحيوان وعالمه والأمثال التي قيلت فيه، والقصص العربية التي تناولته.

(٢) أنماط السلوك الحيواني

الحيوان لغة: ^٤ اسم يقع على كل شيء حي، وسمى الله عز وجل الآخرة حيواناً في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ ^٥ وكل ذي روح حيوان، والحي من كل شيء نقيض الموت والجمع أحياء، والحي من النبات ما كان طرياً يهتز قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ ^٦.

والسلوك لغة: ^٧ مصدر سلك طريقاً، والمسلك الطريق. والسلوك عبارة عن مجموعة من الحركات أو العادات التي تقوم بها الحيوانات استجابة لمثير ما، والتي تقود إلى وظيفة ما تمكن صاحبها من الوصول إلى غاية أو غرض مادي أو معنوي، ويُعنى علم السلوك بدراسة النموذج العام للسلوك البسيط والمركب للحيوانات والذي تستخدمه في حل مشكلات البقاء، والتكاثر في بيئتها الطبيعية. ^٨

وتتباين أنماط سلوك الحيوانات؛ لضمان استمرار حياتها في بيئاتها المختلفة، وذلك على النحو الآتي: ^٩

• السلوك الفطري (الغريزي) Innate Behavior

وهو السلوك الذي يسيطر عليه الفعل الجيني (فعل الموروثات)، وهو سلوك مشترك بين جميع أفراد النوع الواحد نتيجة ما انطبع في جيناتها الوراثية من مؤثرات وراثية ثابتة وموحدة، ويحدث هذا السلوك بشكل طبيعي عند الكائنات الحية دون الحاجة لتعلمها أو ممارستها، فالغريزة تعبر عن قدرة الحيوان على أداء السلوك في المرة الأولى التي يتعرض فيها للتحفيز السليم على سبيل المثال (نباح الكلب وأخذه وضعية الاستعداد عند رؤيته لكائن حي آخر غريب عن محيطه).

وللسلوك الفطري أنواع منها:

- الرعاية: وهي سلوك حماية الكبار للصغار.
- الجنس: وهو سلوك يبدأ به كل من الذكر والأنثى البالغين تجاه بعضهم، وتلعب الهرمونات الجنسية دوراً كبيراً بهذا السلوك.

- **العراك:** يتخذ هذا النوع من السلوك أشكالاً مختلفة مثل الدفاع أو الهجوم أو الاعتداء.
- **الغذاء:** وهو سلوك قدرة الحيوان على البحث عن مصادر الغذاء الموجودة في بيئته، واختيار الأفضل منها.
- **طلب المأوى:** وهو سلوك يقوم الحيوان من خلاله بالبحث عن المكان المناسب؛ ليحمي نفسه من الأعداء الطبيعيين.
- **التواصل:** وهو سلوك تستخدمه الحيوانات للتواصل مع بعضها سواء حيوانات الفصيل الواحد أو الحيوانات مختلفة الفصيل وتتواصل الحيوانات بوسيلتين: الأولى: عن طريق إصدار الأصوات حيث تصدر الحيوانات أصواتاً مختلفة مثل: النباح والنعواء والتغريد للتواصل مع بعضها في حالة التحذير من الخطر، والبحث عن الشريك في موسم التزاوج، والبحث عن الصغار. والثانية: إفراس الفرمونات وهي مواد كيميائية ذات رائحة مميزة تساعد الحيوانات في التواصل.
- **الهجرة:** وهي سلوك فطري يتواجد لدى أنواع من الطيور والثدييات، وتهاجر الحيوانات بحثاً عن المأوى والماء، ويختلف زمن هجرة الحيوانات باختلاف الساعة البيولوجية لكل نوع، وفي معظم الأحيان تهاجر الحيوانات مرتين كل سنة في فصلي الشتاء.

• السلوك المكتسب (التعلم) Learning Behavior

يختص هذا اللون من السلوك بالفرد الواحد عن بقية أفراد النوع الواحد، وهو عبارة عن حركات متجددة ومرنة وهادفة، وتجدر بنا الإشارة إلى أن السلوك الفطري لا يمكن أن يكون نتيجة التعبير الجامد للوراثة فهو ينمو عند فرد ما خلال مراحل النمو تحت التأثير الثنائي للنضج والتجربة، إن هذا التصور يظهر السلوك بصورة ديناميكية يتم تعديله تدريجياً تحت التأثير المتبادل للعوامل الداخلية (الوراثية) والعوامل المحيطة مما يؤدي إلى تغيرات تكيفية فردية ليس فقط في الأفعال الحركية، بل أيضاً في فعالية الخصائص السلوكية.^{١٠} هذا يعني أن السلوك الفطري غير كاف للحيوان في مواجهة الحياة والحفاظ على نوعه وعلى أجياله اللاحقة، ومن ثم لا مناص من أن يكيف سلوكه حتى يستطيع

مواجهة ما يتعرض له من ظروف بيئية متغيرة، وهذا التكيف ينشأ نتيجة التعلم. ومن أمثلة السلوك المكتسب:

- تعلم بعض القطط فتح الأبواب أو الأقفال المغلقة.
- تعلم الصقر للإشارات التي يقوم بها المدرب.
- تعلم الحيوانات بعض الحركات الرياضية كما في استعراضات السيرك.

(٣) الجاحظ^{١١}

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي، من بني كنانة بن خزيمة، وأطلق على عمرو اسم الجاحظ؛ لنتوء عينيه، ويقال له الحدقي لذلك. ولد في البصرة سنة ستين ومائة من الهجرة، وتوفي والده وهو طفل، تعلم الخط والقراءة في أحد كتاتيب بلده، وأخذ مذ كان يانعا يتلقى الفصاحة شفاها عن العرب في المريد، واتصل بعظماء في الدين والآداب مثل: الأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، وأبي عبيدة، ومعمربن المثنى، والأخفش، والنظام إبراهيم البلخي، وصالح بن جناح اللخمي. هؤلاء هم أشهر أساتذته الذين أخذ عنهم اللغة والأدب، والنحو، والكلام، والحكمة.

وللجاحظ عدد كبير من المؤلفات، ألف ثلاثمائة وخمسين مؤلفاً في ضروب شتى من المعرفة، بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات، والإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة في الجاحظ، ومن هذه المؤلفات: البيان والتبيين، والبخلاء، والحيوان، والتربيع والتدوير. وقد توفي الجاحظ بالبصرة عام ٢٥٥هـ.

(٤) كتاب الحيوان

يُعد كتاب الحيوان للجاحظ من أهم كتبه وأشهرها، وقد ألفه في الشطر الأخير من حياته، وقدمه إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم فأجازه عنه بخمسة آلاف دينار.^{١٢}

وكتاب الحيوان من الكتب الحافلة بالمعارف العامة، والملاحظات الخاصة، وضروب الآداب، فالكتاب موسوعة كبيرة، وصورة لثقافة العصر العباسي المتشعبة، فقد حوى الكتاب بين دفتيه طائفة من المعارف الطبيعية، والمسائل الفلسفية، وسياسة الأفراد والأقوام، ونزاع أهل الكلام والطوائف الدينية، وكثير من المسائل الجغرافية، وتأثير البيئة

في الحيوان والإنسان والشجر، كما تناول الكتاب أيضا بعض القضايا التاريخية، وتحدث عن أمراض الحيوان والإنسان، وبيّن الكثير من المفردات الطبية، ولم يغفل الجاحظ في كتابه عن الحديث عن العرب والأعراب، وأحوالهم وعاداتهم وعلومهم، وبعض مسائل الفقه والدين، كما فصل القول في أي الذكر الحكيم والحديث النبوي الشريف، هذا بالإضافة إلى أن الكتاب جمع قدرًا كبيرًا من الأشعار والأمثال عن الحيوان.

وقد ذكر الجاحظ العقبات التي واجهته في تأليف كتابه الحيوان فقال: "وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة لو تكلفت كتابًا في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر، والصفرة والتوليد والمداخلة، والغرائز والنّحاس لكان أسهل وأقصر أيامًا، وأسرع فراغًا؛ لأنني كنت لا أفرغ فيه إلى تلقُّط الأشعار، وتتبع الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرق هذه الأمور في الكتب." ١٣

والجاحظ في نصه السابق يرشدنا إلى المصادر التي أسهمت في تكوين وعيه الإيثولوجي، وهي على النحو الآتي:

- المرجع الأول: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.
- المرجع الثاني: الشعر العربي، فقد تحدث العرب في أشعارهم عن الحيوان الأنيس منه والوحشي، فوصفوا الإبل وحملها وألبانها وألوانها، كما كان لهم في الخيل نعت مفصل، ووفوا كذلك لكلابهم وشائهم، ومن الحيوانات الوحشية التي تحدثوا عنها الأسد والنمر والثعلب وغيرها، ومن الطيور ذكروا النسور والعقبان والحدأ.
- المرجع الثالث: الأمثال الأدبية المرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالحيوان وصفاته وطباعه. هذا بالإضافة إلى إفادة الجاحظ من كتاب الحيوان لأرسطو، وقد نقل عنه "تصوصا ليست من الكثرة بمكان، ولكنها من القيمة والنفاسة بمكان عظيم" ١٤

(٥) طباع الكلب العجيبة في كتاب الحيوان للجاحظ

يتواصل أفراد كل فصيلة من فصائل الحيوانات بعضهم ببعض بعدة وسائل منها: (الصوت، والحركة، والشم، واللمس، والضوء، واللون)، وقد يكون التواصل بوسائل أخرى، وقد يكون بأكثر من وسيلة من الوسائل المذكورة، فللحيوان إذن لغة يتفاهم بواسطتها فيما

بينه وبين زملائه من نفس النوع.^{١٥}

والكلبيات فصيلة من الفقاريات آكلة لحوم، تشمل الكلاب، والذئاب، والثعالب.^{١٦} والكلب "حيوان شديد الرياضة، كثير الوفاء، وهو لا سبع ولا بهيمة، حتى كأنه من الخلق المركب؛ لأنه لو تم له طباع السبعية ما ألف الناس، ولو تم له طباع البهيمية ما أكل لحم الحيوان."^{١٧}

ومن مظاهر الإيثولوجي في باب طباع الكلب العجيبة لدى الجاحظ في كتابه الحيوان ما يأتي:

أولاً: النباح

للكلب ضروب من النغم، وأشكال متباينة من الأصوات، وله نوح وتطريب، ودعاء وخوار، وهريز وعواء، ونباح، وهمهمة، وزمجرة، وله صوت شبيه بالأنين، وتختلف هذه الأصوات من حيث النبرة والدرجة.^{١٨}

ويعد نباح الكلاب وسيلة من وسائل التواصل بين أفراد تلك الفصيلة، كما أنه وسيلة لتواصلها مع البشر، وقد أدرك الجاحظ هذا السلوك، وتناوله على النحو الآتي:

- نباح السحاب

للحيوانات سلوك وقت القر وتلبد السماء بالغيوم، ففي ذلك الوقت تعاني ما يعانيه الإنسان من المشقة وكساد النشاط، ومن الحيوانات التي يطرأ على سلوكها التغيير بسبب القر (الكلب) قال الجاحظ: "والكلب إذا ألحت عليه السحاب بالأمطار في أيام الشتاء لقي جنة فمتى أبصر غيما نبجه، لأنه قد عرف ما يلقي من مثله"^{١٩}

فالجاحظ يرى أن كلاب البادية الشهيرة بكثرة حركتها يصيبها الجنون إذا أبصرت الغيوم في السماء؛ لإدراكها ما سيلاقها من معاناة جراء البرد والمطر؛ لأنها تنام عادة في العراء، وتفتقر إلى الحماية من المزن، ومن ثم تغدو غير قادرة على القيام بأنشطتها التي تقوم بها يومياً، وقد كشف الجاحظ أن تلك الغريزة الفطرية في الكلاب ضاربة في أعماق التراث الأدبي العربي حيث ورد الحديث عنها في أشعار العرب كقول الشاعر:

ومالي لا أغزو وللدهر كرهة وقد نبحت نحو السماء كلابها

فالشاعر في البيت السابق كان يترك الغزو مخافة على الخيل والأنفس من العطش،

ولم يجد عذراً اليوم لتقاعسه عن الغزو والأمطار قد هطلت وتوافرت المياه في الغدران والأودية، فالكلاب لا تتبج السماء إلا من إلحاح المطر وغازرته.

يرى الجاحظ إذن أن القر يصيب الكلب بشلل في حركته، ومن ثم يبدو الغضب عليه، وينعكس على سلوكه، فيرفع رأسه نحو السحب المنتشرة ينبجها خوفاً من هطول المطر، وما يعقبه من صقيع يستدعي الاختباء للحماية منه، ومرجع الجاحظ في هذا السلوك أيضاً قول الأفوه الأودي: ^{٢٠}

لَهُ هَيْدَبٌ دَانٍ وَرَعْدٌ وَلَجَّةٌ وَبَرْقٌ تَرَاهُ سَاطِعًا يَتْبَلَّجُ ^{٢١}
فَبَاتَتْ كِلَابُ الْحَيِّ يَنْبُحْنَ مُرْنَهُ وَأَضَحَّتْ بَنَاتُ الْمَاءِ فِيهَا تَمَعَّجُ ^{٢٢}

فالشاعر في البيتين السابقين يوضح سلوك الكلاب وقت انتشار السحب المتدلّية الدانية من الأرض، والتي تصدر رعداً وصخباً وبرقاً لامعاً مشرقاً، فعندما أحست الكلاب بكثرة تلك السحب المثقلة بالماء نبحتها؛ لاستشعارها الخطر المحقق بها، لكن لامحالة هطلت الأمطار، وفي مقابل سلوك الكلاب أوضح الشاعر سلوك الضفادع أو الأسماك التي سعدت لكثرة المياه المتجمعة وراحت تعوم وتتلوى فيها.

وتعد الأمثال العربية مصدراً رئيساً أيضاً من مصادر الجاحظ في إبراز مظاهر علم الإيثولوجي عند الكلاب، ومن الأمثال التي استدل بها على سلوك التواصل لدى الكلاب عبر النباح في موسوعته الحيوان قول العرب في مجالس البادية: "لا يضر السحاب نباح الكلاب" ^{٢٣} فالكلاب إذا ما شاهدت السحاب المحملة بالمياه اضطربت ونبحت؛ لمعرفتها بما تلقى منه من أذى، ويضرب هذا المثل لمن ينال من إنسان بما لا يضره ^{٢٤}، أي أنه كناية عن عدم الاكتراث بكلام السفية.

- نباح الاستغاثة والسعادة

قد يكون نباح الكلب نداء استغاثة أو تعبيراً عن السعادة، وقد استطاع العرب فك رموز رسائل الكلاب عبر النباح وفهمها من خلال نغمة هذا الصوت، أو مدى ارتفاعه ومدته وتكراره، وآية ذلك ما أورده الجاحظ في حديثه عن فراسة إياس بن معاوية ^{٢٥} فقال: "حج إياس بن معاوية فسمع نباح كلب فقال: هذا كلب مشدود، ثم سمع نباحه فقال: قد أرسل. فانتهوا إلى الماء فسألوهم فكان كما قال. فقال له غيلان أبو مروان: كيف علمت

أنه موثق وأنه أطلق؟ قال: كان نباحه وهو موثق يسمع من مكان واحد، فلما أطلق سمعته يقرب مرة ويبعد مرة، ويتصرف في ذلك".^{٢٦}

يوثق الجاحظ فيما سبق إمام القاضي إياس بن معاوية بعلم الإيثولوجي (علم سلوك الحيوان)، وبراعته في التمييز بين حالين متناقضين مر بهما الكلب باستخدام سلوك واحد هو (النباح) من خلال وعيه باختلاف نغمة هذا الصوت في الحالين، فالله سبحانه وتعالى خلق في الكلب أنظمة دفاع يحل بها أبسط المشكلات التي تعترضه في حياته، ويعكس من خلالها أيضًا مدى فرحته بالتغلب عليها، ومن هذه الأنظمة (النباح) الذي استخدمه الكلب - في رواية الجاحظ عن إياس بن معاوية - للتخلص من قيده، والتعبير به أيضًا عن سعادته لإطلاق سراحه.

ويبدو ذكاء القاضي إياس بن معاوية في تحديده مكان الكلب، وأنه مقيد في هذا المكان، وذلك عندما سمع صدى نباح الكلب وهم في أرض منبسطة فعلم أنه لا بد أن يكون عند شفير بئر، وعندما تكرر نباحه وصداه فأيقن أن الكلب مربوط. وبعد ذلك سمع نباحه في أماكن متفرقة فعلم أنه قد أطلق.

ثانياً: الوفاء

وفاء الكلاب غريزة تتمتع بها للتعبير عن الولاء والإخلاص والحب تجاه أصحابها، ويتجسد هذا الوفاء في سلوك وأفعال مثل: الحماية، والانتماء، والسعادة، والمشاعر الإيجابية. ومن ثم يعد هذا السلوك أحد أهم الجوانب التي تميز العلاقة بين الكلب وصاحبه، بالإضافة إلى أنه يسهم في بناء رباط وثيق بينهما.

وقد تحدث بعض شعراء العرب عن سلوك الوفاء عند الكلاب في أشعارهم، فقد أنشد

أبو الحسن بن خالويه عن أبي عبيدة لبعض الشعراء:

يُعَرِّدُ عَنْهُ جَارُهُ وَشَقِيْقُهُ وَيَنْبِشُ عَنْهُ كَلْبُهُ وَهُوَ صَارِيْهُ^{٢٧}

قال أبو عبيدة: قيل ذلك لأن رجلاً خرج إلى الجبان ينتظر ركابه^{٢٨} فأتبعه كلب كان له، فضرب الكلب وطرده، وكره أن يتبعه، ورماه بحجر، فأبى الكلب إلا أن يذهب معه، فلما صار إلى الموضع الذي يريد فيه الانتظار، ربض الكلب قريباً منه، فبينما هو كذلك إذ أتاه أعداء له يطلبونه بطائلة لهم عنده، وكان معه جارٌّ له وأخوه دنيا^{٢٩} فأسلماه وهربا

عنه، فجرح جراحات، ورمي به في بئر غير بعيدة القعر، ثم حثي عليه التراب، ثم غطي رأسه، ثم كعم فوق رأسه منه، والكلب فوق ذلك يرخم، ويهر، فلما انصرفوا أتى رأس البئر، فما زال يعوي وينبش عنه ويحثو التراب بيده ويكشفه عن رأسه حتى أظهر رأسه، فتنفس وردت إليه الروح وقد كاد يموت ولم يبق منه إلا حشاشة^{٣٠}، فبينما هو كذلك إذ مر ناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحضر عن قبر، فنظروا فإذا هم بالرجل على تلك الحال، فاستشالوه فأخرجوه حيًّا، وحملوه حتى أدوه إلى أهله، فزعم أن ذلك الموضع يدعى ببئر الكلب. وهو متيامن عن النجف^{٣١}. "٣٢

تعد حماية الكلب لصاحبه، والدفاع عنه، وإظهار الشجاعة والإقدام في مواجهة أي تهديد يعترضه من السلوكيات التي تعكس صدق وفائه له، فعندما يشعر الكلب بالخطر المحتمل وقوعه أو الواقع بالفعل على صاحبه يتصرف كدرع حماية له، وينقذه إن أُلتمت به نائبة، في حين يلوذ الأقربون منه بالفرار في وقت الشدة.

والكلب في القصة السابقة انتهج سلوكين متباينين هما: العواء والنبش؛ لإنقاذ صاحبه من البئر الذي أُلقي فيه، فالعواء نباح ممتد يشبه صوت الذئب اتخذ الكلب وسيلة لجذب انتباه أحد المارة لمعاونته في إخراج صاحبه من البئر، والنبش إزاحة الكلب للتراب الذي وضع فوق صاحبه كمحاولة منه لإبقائه على قيد الحياة. وقد نجح الكلب من خلال السلوكين السابقين في إخراج صاحبه من البئر، فالناس عندما سمعوا عواءه ذهبوا إليه فوجدوه ينبش في البئر، فاقتربوا منه فإذا برأس إنسان بالكاد تخرج من بين الرمال، فقاموا بالحفر حتى أخرجوا صاحب الكلب من البئر.

اتخذ الجاحظ من هذا البيت وقصته دليلاً على أن وفاء الكلب وفاء طبيعي وإلف غريزي، ومحاماة شديدة، كما أن سلوكه دليل على معرفة وصبر، وعلى كرم وشكر، وعلى غناء عجيب، ومنفعة تفوق المنافع؛ لأن ذلك كله كان من غير تكلف ولا تصنع^{٣٣} ومن صور وفاء الكلاب معرفة الكلب صاحبه وفرحه به، ويشير الجاحظ إلى السلوك الذي يعكس ذلك في قوله: "والكلب يعرف وجه ربه وأمته، ووجه الزائر. حتى ربما غاب صاحب الدار حولًا مجرمًا، فإذا أبصره قادمًا اعتراه من الفرحة والبصبة، والعواء الذي يدل على السرور، وعلى شدة الحنين."^{٣٤}

وساق الجاحظ قصة واقعية رواها صديق له عن سلوك كلب شاهد صاحبه بعد فترة غياب طويلة فقال: " وخبرني صديق لي: كان عندنا جرو كلب، وكان لي خادم لهج بتقريبه، مولع بالإحسان إليه، كثير المعاينة له، فغاب عن البصرة أشهرًا، فقلت لبعض من عندي: أتظنون أن فلانًا (يعني الكلب) يثبت اليوم صورة فلان (يعني خادمه الغائب) وقد فارقه وهو جرو، وقد صار كلبًا يشغر ببوله؟ قالوا: ما تشك أنه قد نسى صورته وجميع بره كان به. قال: فبينما أنا جالس في الدار إذ سمعت من قبل باب الدار نباحه، فلم أر شكل نباحه من التأنب والتعشيث والتوعد، ورأيت فيه بصبصة السرور، وحنين إلف. ثم لم ألبث أن رأيت الخادم طالعًا علينا، وإن الكلب ليلتف على ساقيه، ويرتفع إلى فخذيه، وينظر في وجهه، ويصيح صياحًا يستبين فيه الفرح، ولقد بلغ من إفراط سروره أنني ظننت أنه عرض. ثم كان بعد ذلك يغيب الشهرين والثلاثة، ويمضي إلى بغداد ثم يرجع إلى العسكر بعد أيام، فأعرف بذلك الضرب من البصبصة، وبذلك النوع من النباح، أن الخادم قدم. وحتى قلت لبعضهم عندي: ينبغي أن يكون فلان قدم، وهو داخل عليكم مع الكلب." ^{٣٥}

رصد صديق الجاحظ في هذا الحدث عبر الملاحظة الدقيقة والتتبع والمقارنة مجموعة من السلوكيات التي بدت على الكلب إثر رؤية صاحبه الذي طالما أحسن إليه بعد غيابه عنه عدة أشهر، فقد لاحظ على الكلب تغير نبرة نباحه، وهز ذنبه تعبيرًا عن سروره البالغ بعودة صاحبه، واشتياقه وحنينه إليه، هذا بالإضافة إلى التقاف الكلب حوله، وقفزه إلى فخذيه، والنظر في وجهه حتى ظن صديق الجاحظ أن الكلب قد أصابه الجنون من فرط سعادته بعودة صاحبه. كما أكد راوي القصة على أنه من خلال تلك السلوكيات يعرف بقدوم الخادم في كل مرة يغيب فيها عن الكلب.

إن فصيلة الكلبيات من الفصائل التي تتعلق بكل من يقدم لها العناية، فالكلب يجيد التعبير عن أحاسيسه الإيجابية بكل الوسائل المتاحة، ومن ثم يترجم سعادته برؤية صاحبه، وحبه تجاهه في مجموعة من السلوكيات التي رصدتها العديد من الدراسات العلمية الحديثة عبر الاختبار السلوكي؛ لقياس سلوكيات الارتباط عند الكلاب. ^{٣٦}

ثالثاً: الانتباه

أورد الجاحظ في كتابه الحيوان تجربة أجراها صديق له على كلبين عنده فقال: " وقد خدمني صديق لي أنه حبس كلبًا له في بيت وأغلق دونه الباب في الوقت الذي كان طباخه يرجع فيه من السوق ومعه اللحم، ثم أحد سكينًا بسكين، فنبح الكلب، ورام فتح الباب؛ لتوهمه أن الطباخ قد رجع من السوق بالوظيفة، وهو يجد السكين ليقطع اللحم!! قال: فلما كان العشي صنعنا به مثل ذلك، لنتعرف حاله في معرفة الوقت، فلم يتحرك!! قال: وصنعت ذلك بكلب لي آخر فلم يقلق إلا قلقلًا يسيرًا، فلم يلبث أن رجع الطباخ فصنع بالسكين مثل صنيعي، ففلق حتى رام فتح الباب!! قال فقلت: والله لئن عرف الوقت بالرصد فتحرك له، فلما لم يشم ريح اللحم عرف أنه ليس بشيء، ثم لما سمع صوت السكين والوقت لم يذهب، وقد جيء باللحم من المطبخ، وهو في البيت، أو عرف فصل ما بين إحدادي السكين وإحداد الطباخ، إن هذا أيضًا لعجب. وإن اللحم ليكون بيني وبينه الذراعان والثلاث الأذرع، فما أجد ريحه إلا بعد أن أدنيه من أنفي. وكل ذلك عجب." ^{٣٧}

لاحظ صاحب التجربة أن الكلب الأول اعتاد على رجوع الطباخ من السوق باللحم في وقت محدد بالنهار، كما لاحظ أن هذا الكلب بمجرد سماعه للطباخ وهو يسن سكينًا بسكين مع انبعاث رائحة اللحم تصدر منه بعض السلوكيات مثل: النباح، والاضطراب في محبسه في البيت وكأنه يريد الخروج، وقام صاحب الكلب بتكرار تلك التجربة في المساء؛ ليرصد التغير في ردة فعل الكلب إن وجد، فلاحظ أن الكلب لم يتحرك عند سماعه صوت حد السكين؛ لإدراكه أن هذا الوقت ليس وقت وجبة اللحم. ثم أجرى صديق الجاحظ التجربة ذاتها على كلب آخر لم يعتد على مزامنة صوت السكين لوجبة اللحم فلم يتحرك، فاستنتج من ذلك أن الكلب الأول ارتبط لديه صوت حد السكين في وقت محدد بالنهار مع تقديم وجبة اللحم له.

أوضح الجاحظ من خلال التجربة السابقة نظرية جديدة في الإيثولوجي وهي (نظرية الانتباه الغريزي في الكلب)، تلك النظرية كانت أساساً لنظرية (الانعكاس الشرطي) لإيفان بافلوف في العصر الحديث عام ١٩٠٢م، فقد أجرى العالم الروسي بافلوف تجربته على كلب تعود أن الخادم يقدم له اللحم فيسيل اللعاب من فمه عند سماع وقع أقدام الخادم

استعدادا لوجبة الطعام، فوضع بافلوف أنبوبة في رقبة الكلب؛ ليقس بها كمية إفراز لعابه عند وجود المثير، ثم أخذ يضرب جرسًا ويتبع ذلك بتقديم اللحم للكلب، ومع تكرار التجربة استنتج أن لعاب الكلب يسيل في كل مرة يسمع فيها صوت الجرس مما يعني أن الكلب ربط بين الجرس وتقديم اللحم له. ثم ضرب بافلوف الجرس عدة مرات دون تقديم اللحم للكلب فلاحظ تناقص سيلان اللعاب.^{٣٨} وقد أثرت هذه النظرية علم الإيثولوجي في العصر الحديث لبيانها سلوك الكلب في حال وجود المثير أو غيابه.

رابعاً: الأدب

سلوك الأدب لون من ألوان السلوك المكتسب، وهو نتيجة تعديل الكلب لسلوكه الفطري تحت تأثير التجربة، وتكيفه مع العوامل المحيطة به؛ لاتقاء الأذى من أجل البقاء، قال الجاحظ: "وزعم لي غلماني وغيرهم من أهل الدرب، أنه كان ينبح على كل راكب يدخل الدرب إلى عراقيب برذونه، سائساً كان أو صاحب دابة إلا أنه كان إذا رأى محمد بن عبد الملك داخلاً إلى باب الدرب أو خارجاً منه، لم ينبح البتة، لا عليه ولا على دابته، بل كان لا يقف له على الباب ولا على الطريق، ولكنه يدخل الدهليز سريعاً، فسألت عن ذلك فبلغني أنه إذا كان إذا أقبل صاح به الخادم، وهوله بالضرب، فيدخل الدهليز، وأنه ما فعل ذلك به إلا ثلاث مرات، حتى صار إذا رأى محمد بن عبد الملك، دخل الدهليز من تلقاء نفسه، فإذا جاوز وثب على عراقيب دواب الشاكرية. ورأيت هذا الخبر عندهم مشهوراً."^{٣٩}

يوضح الجاحظ في القصة السابقة أثر التجربة التي مر بها الكلب في سلوكه الفطري، فمن سلوكه الغريزي النباح على كل راكب يدخل الدرب سائساً كان أو صاحب دابة، لكن عقب تعرضه للضرب من خادم محمد بن عبد الملك ثلاث مرات تفاعل مع ذلك بالسلوك الذي فيه حفاظ على نفسه، وهذا ما يطلق عليه في علم السلوك الحيواني التعلم أو فائدة التجربة، ويمكن شرح هذا "إذا ما فرضنا أننا عرضنا حيوانين من نوع واحد لمنبه معين تحت ظروف واحدة، وكان أحدهما قد عرض لهذا المنبه من قبل تحت ظروف مماثلة، فما من شك في أن هذا الحيوان سوف يتفاعل أو يستجيب بطريقة تختلف عن تفاعل أو استجابة الحيوان الآخر الذي لم يقع تحت تأثير المنبه من قبل؛ ذلك لأن الأول قد تأثر

بتفاعله أو استجابته (أي بسابق تجربته) بما حدث من قبل.^{٤٠}

خامسا: سلوكيات الصيد

الصيد نشاط إنساني قديم مارسه الإنسان؛ لتلبية احتياجاته الأساسية أو لمجرد الرياضة، ومن ثم لعبت كلاب الصيد دورًا رئيسًا في معاونته في هذا الضرب من الأنشطة الإنسانية. وتنفرد كلاب الصيد بسلوكيات مهارية مثل: الذكاء، الركض، الشم، القوة البدنية، وفي هذا الصدد قال الجاحظ: "ومن معرفة الكلب أن المكلب يخرج إلى الصيد في يوم الأرض فيه ملبسة من الجليد، ومغشاة بالثلج، قد تراكم عليها طبقًا على طبق، حتى طبقتها واستفاض فيها، حتى ربما ضربته الريح ببردها، فيعود كل طبق منها وكأنه صفاة لمساء، أو صخرة خلقاء، حتى لا يثبت عليها قدم ولا خوف، ولا حافر ولا ظلف، بالثبيث الشديد، أو بالجهد والتفريق، فيمضي الكلاب بالكلب، وهو إنسان عاقل، وصيدا مجرب، وهو مع ذلك لا يدري أين جحر الأرنب، من جميع بسائط الأرض، ولا موضع كأس ظبي، ولا مكو ثعلب، ولا غير ذلك من موالج وحوش الأرض، فيتخرق الكلب بين يديه وخلفه، وعن يمينه وشماله، ويتشم ويتبصر، فلا يزال كذلك حتى يقف على أفواه تلك الجحرة، وحتى يثير الذي فيها بتنفيس الذي فيها، وذلك أن أنفاسها وبخار أجوافها وأبدانها، وما يخرج من الحرارة المستكنة في عمق الأرض مما يذيب ما لاقاها من فم الجحر من الثلج الجامد، حتى يرق ويكاد أن يثقبه، وذلك خفي غامض، لا يقع قانص ولا راع، ولا قائف ولا فلاح، وليس يقع عليه إلا الكلب الصائد الماهر".^{٤١}

تناول الجاحظ فيما سبق مجموعة من الغرائز التي تتميز بها كلاب الصيد وهي: تحمل القر، والركض أو العدو، والشم، والإبصار، وقد استثمر القانص تلك الغرائز في إنجاح عملية الصيد. فالمكلب يخرج بالكلب الذي لديه مقدرة على تحمل درجات الحرارة الباردة في رحلة الصيد، ويتمتع بالمرونة في التنقل والعدو وراء الفريسة، وفي هذه الحالة تكون لكلاب الصيد "حركات ظهرية وبطنية لعمودها الفقري؛ لتزيد اتساع الخطوة بكفاءة عالية".^{٤٢} كما يستفيد المكلب من حاسة الشم القوية لدى الكلب في تحديد مكان الفريسة، فكلب الصيد يتتبع رائحة الفريسة عن طريق غريزة الشم القوية التي يمتلكها فهذه الكلاب تتتبع أثر حيوان محدد، وعليها أن تميز فقط رائحة هذا الحيوان بالذات من بين روائح

أخرى كثيرة.^{٤٣} وأخيرا أشار الجاحظ إلى غريزة الإبصار القوية لدى كلب الصيد، والتي تسهم في مطاردة الفريسة وإبقائها تحت نظره لحين الإيقاع بها، وقد وصف أحد الشعراء عيون الكلاب إذا أبصرت الصيد فقال:^{٤٤}

مَجْرَعَةٌ غُضِفَتْ كَأَنَّ عِيُونَهَا إِذَا آدَنَ الْفُنَّاصُ بِالصَّيْدِ عَضَّرَسُ

شبه الشاعر عيون الكلاب حين تختل الصيد بالبرد أو الثلج في بياضه وبريقه من شدة سعادتها بالعثور على الفريسة.

وتناول الجاحظ غريزة أخرى من غرائز كلب الصيد وهي حرصه الشديد على متابعة الفريسة للإمساك بها فقال:^{٤٥} "والكلب أشد ما يكون حرصًا إذا كان خطمه يمس عجب ذنب الطيبي والأرنب والثور وغير ذلك، مما هو من صيده. ولذلك قال الشاعر:^{٤٦}

رُبَّمَا أَغْدُو مَعِي كَلْبِي	طَالِبًا لِلصَّيْدِ فِي صَحْبِي
فَسَمُونَا لِلْفَنِيصِ مَعًا	فَدَفَعْنَاهُ إِلَى أَطْبِ
فَاسْتَدْرَيْتَهُ فَدَرَّ لَهَا	يَلْطُمُ الزُّفْعَيْنِ بِالثَّرِبِ
فَادْرَاهَا وَهِيَ لَاهِيَةٌ	فِي جَمِيمِ الحَاذِ وَالْعَرَبِ
فَقَرَى جُمَاعَهُنَّ كَمَا	قَدَّ مَخْلُولَانَ مِنْ عَصَبِ
غَيْرِ يَغْفُورٍ أَهْلًا بِهِ	جَافَ دَفِيئِهِ عَنِ القَلْبِ
ضَمَّ لَحْيِيهِ بِمَخْطَمِهِ	ضَمَّ الكَسْرَيْنِ بِالشَّعْبِ
وَانْتَحَى لِلبَاقِيَاتِ كَمَا	كَسَرَتْ شَعْوَاءَ مِنْ لَهَبِ
فَتَعَايَا التَّيْسُ حِينَ كَبَا	وَدَنَا فَوَّهُ مِنْ العَجَبِ
ظَلَّ بِالوَعَسَاءِ يَنْفُضُهُ	أَرَمًا مِنْهُ عَلَى الصُّلْبِ
تِلْكَ لَذَاتِي وَكُنْتُ فَتَى	لَمْ أَقُلْ مِنْ لَذَّةِ حَسْبِي

عرف العرب الصيد بالكلاب منذ العصر الجاهلي، وقد أولى الشعراء كلب الصيد عناية كبيرة في قصائدهم، وكان أبو نواس "ممن أكثر النظم في الصيد ومحافله وأدواته، وأحسن غاية الإحسان في وصف الكلاب."^{٤٧} وقد أورد الجاحظ الأبيات السابقة كشاهد على غريزة حرص الكلب على متابعة فريسته حتى ينجح في الإمساك بها، فالشاعر يغدو في الصباح الباكر بصحبة كلبه يطلب الصيد، فيطلقه على الطباء، فتنتقل انطلاقًا سريعًا

مما يدفع الكلب إلى زيادة سرعته للحاق بها وتحقيق غايته، فيضرب إبطيه بالأرض كأنه يسبح في الماء من شدة ركضه، ولكنه استمر في ملاحقتها محاولاً المكر بها، وهي تحاول الهرب منه وسط الأشجار الكثيفة، لكن سرعان ما تفرقت عن بعضها البعض، ثم يصف الشاعر اليعفور الصغير الذي تقدم ليفتدي أمه، فجمع بينهما بشدته حتى لم يبين أنهما مفترقان كما يصلح المكسور، وينتقل الشاعر بعد ذلك ليصور انحطاط الكلب على صيده بانحطاط العقاب على فريسته، وقد سقط التيس على وجهه من كثرة ما أصابه الكلب من جراح منتظرا الموت، ورغم ذلك استمر الكلب في نهشه بهذه الأرض الرملية، وأخيرا يختم الشاعر أبياته بإبراز انتصاره، والفخر بما يمتلكه من عناصر قوة، وبيان غايته من الصيد وهي اللذة فحسب.

سادسا: اللهاث

وقف الجاحظ عند غريزة اللهاث في الكلب في معرض تناوله مسألة كلامية فقال: "وقد اعترض معترضون في قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾^{٤٨} فرغم أن هذا المثل لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام، لأنه قال: ﴿وَأَنذِرْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ فما يشبه حال من أعطي شيئا فلم يقبله- ولم يذكر غير ذلك- بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولى ذاهبا، وإن تركته شد عليك ونبح. مع أن قوله: يلهث، لم يقع في موضعه، وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد، ومن تعب؛ وأما النباح والصياح فمن شيء آخر. قلنا: إن قال: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فقد يستقيم أن يكون الراد لا يسمى مكذبا، ولا يقال لهم كذبوا إلا وقد كان ذلك منهم مرارا، فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذي أوتي الآيات والأعاجيب، والبرهانات والكرامات، في بدء حرصه عليها وطلبه لها، بالكلب في حرصه وطلبه؛ فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات، وشبه رفضه وقذفه لها من يديه، ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة فيها، بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له. وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النفيسة في وزن طلبها

والحرص عليها. والكلب إذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلاً إليك ومدبراً عنك، لهث واعتراه ما يعتره عند التعب والعطش. وعلى أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها والذي طبعت عليه من شأنها إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللين.^٩

فاللهث تنفس بسرعة وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان وهي غريزة دائمة في الكلب سواء حمل الإنسان عليه أو تركه فهو يلهث في كل الأحوال. وقد جعله الله تعالى مثلاً لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه واتبع هواه فانسلخ من الإيمان فبقي على الضلال في كل الأحوال مثل هذا الكلب الذي بقي على اللهث في حالاته جميعها.

وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن جلد الإنسان توجد به غدد عرقية مهمتها تنظيم درجة الحرارة، وأن جلد الكلب لا توجد به تلك الغدد، ومن ثم لا يملك إلا اللهات في كل الأحوال. ويبلغ معدل اللهات عند الكلب حوالي ٣٠٠ ضربة في الدقيقة في حالة اشتداد حرارة أجسامها.^{١٠} وهذا يؤكد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

يتبين مما سبق أن الجاحظ تناول الأنماط السلوكية للكلب بمنهج علمي قائم على إعمال العقل، والتتبع، والملاحظة، والتجربة، والاستنباط، والاستدلال، كما أنه تحرى الدقة والأمانة العلمية في تناوله لتلك السلوكيات، فقد حرص على إسناد كل دليل أو شاهد إلى صاحبه.

الخاتمة:

تبين من الدراسة النتائج الآتية:

- ١- أسهم كتاب وعلماء العرب بمصنفات عديدة في الحديث عن الحيوان، لكن يظل الجاحظ أول واضع لموسوعة عربية جامعة في الإيثولوجي (علم سلوك أو طبائع الحيوان).
- ٢- جمع الجاحظ في موسوعة الحيوان بين العلم والأدب، فقد تناول السلوك الحيواني عبر الأبيات الشعرية التي تحدثت عن الحيوان وعالمه، والأمثال التي قيلت فيه. ومن ثم كان تراثنا العربي والأدبي اللبنة التي شُيِّدت عليها نظريات الإيثولوجي في زمننا المعاصر.
- ٣- توصلت الدراسة إلى بعض المصادر التي أسهمت في تكوين وعي الجاحظ الإيثولوجي في باب طباع الكلب العجيبة وهي: القصص العربية الواقعية، والتجارب، والتتبع والملاحظة، هذا بالإضافة إلى ما ذكره الجاحظ من مصادر وهي: القرآن الكريم، والشعر العربي، والأمثال.
- ٤- من مظاهر الإيثولوجي في باب طباع الكلب (النباح-الوفاء-الانتباه-الأدب-سلوكيات الصيد-اللهاث).
- ٥- للحيوانات سلوك وقت القر وتلبد السماء بالغيوم، ففي ذلك الوقت تعاني ما يعانيه الإنسان من المشقة وكساد النشاط، ومن الحيوانات التي يطرأ على سلوكها التغيير بسبب القر (الكلب)، فالكلاب تنبح السماء من إبحاح المطر وغزارته؛ لإدراكها ما سيلاقئها من معاناة جراء البرد والمطر؛ لأنها تنام عادة في العراء، وتفتقر إلى الحماية من المزن، ومن ثم تغدو غير قادرة على القيام بأنشطتها التي تقوم بها يوميا. وقد سجل العرب هذه الغريزة الفطرية للكلب في أشعارهم وأمثالهم.
- ٦- أدرك العرب بذكائهم وفطنتهم أن النباح قد يكون نداء استغاثة أو سعادة، من خلال وعيهم باختلاف نغمة هذا الصوت وفقا للتجارب التي يمر بها الكلب.
- ٧- وفاء الكلاب غريزة تتمتع بها للتعبير عن الولاء والإخلاص والحب تجاه أصحابها، ويتجسد هذا الوفاء في سلوك وأفعال مثل: الحماية، والانتماء،

- والسعادة، والمشاعر الإيجابية. ومن ثم يعد هذا السلوك أحد أهم الجوانب التي تميز العلاقة بين الكلب وصاحبه، بالإضافة إلى أنه يسهم في بناء رباط وثيق بينهما، وقد رصد الشعراء تلك السلوكيات في أشعارهم، وقصصهم الواقعية.
- ٨- أوضح الجاحظ بالتجربة نظرية جديدة في الإيثولوجي وهي (نظرية الانتباه الغريزي في الكلب)، تلك النظرية كانت أساساً لنظرية (الانعكاس الشرطي) لإيفان بافلوف في العصر الحديث عام ١٩٠٢م.
- ٩- سلوك الأدب لون من ألوان السلوك المكتسب، وهو نتيجة تعديل الكلب لسلوكه الفطري تحت تأثير التجربة، وتكيفه مع العوامل المحيطة به؛ لانتقاء الأذى من أجل البقاء، وقد سجل العرب هذا في رواياتهم لأحداث واقعية، كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ذلك أيضاً.
- ١٠- الصيد نشاط إنساني قديم مارسه الإنسان؛ لتلبية احتياجاته الأساسية أو لمجرد الرياضة، ومن ثم لعبت كلاب الصيد دوراً رئيساً في معاونته في هذا الضرب من الأنشطة الإنسانية. وتنفرد كلاب الصيد بسلوكيات مهارية مثل: الذكاء، الركض، الشم، القوة البدنية، وقد سجل العرب تلك السلوكيات في قصائدهم، وقصصهم، كما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة انفراد كلاب الصيد بتلك السلوكيات.
- ١١- وقف الجاحظ عند غريزة اللهاث في الكلب، واستدل بالآية القرآنية التي ورد فيها الحديث عن تلك الغريزة، فاللهث تنفس بسرعة وتحريك أعضاء الفم وخروج اللسان وهي غريزة دائمة في الكلب سواء حمل الإنسان عليه أو تركه فهو يلهث في كل الأحوال. وقد جعله الله تعالى مثلاً لمن عرض عليه الهدى فأبى أن يقبله وتركه واتبع هواه فانسلخ من الإيمان فبقي على الضلال في كل الأحوال مثل هذا الكلب الذي بقي على اللهث في حالاته جميعها. وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن جلد الإنسان توجد به غدد عرقية مهمتها تنظيم درجة الحرارة، وأن جلد الكلب لا توجد به تلك الغدد، ومن ثم لا يملك إلا اللهاث في كل الأحوال. ويبلغ معدل اللهاث عند الكلب حوالي ٣٠٠ ضربة في الدقيقة في حالة اشتداد حرارة أجسامها. وهذا يؤكد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

- ١٢- سجل شعراء العرب في قصائدهم عددا من الأنماط السلوكية للكلب عن طريق الملاحظة والتتبع والتجربة، وذلك بلغة بعيدة عن الخيال في الغالب؛ لأنهم يتحدثون عن حقائق علمية.
- ١٣- تناول الجاحظ الأنماط السلوكية للكلب بمنهج علمي قائم على إعمال العقل، والتتبع، والملاحظة، والتجربة، والاستنباط، والاستدلال، كما أنه تحرى الدقة والأمانة العلمية في تناوله لتلك السلوكيات، فقد حرص على إسناد كل دليل أو شاهد إلى صاحبه.

الهوامش:

- (١) معجم مصطلحات علوم الحشرات، د/ وليد عبد الغني كعكة، ج ١، ٢٠٠٦م، ص ٤٥٤.
- (٢) الإيثولوجي، إيجور إكيوشكين، ترجمة نجيب هزاع، مراجعة جلال عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م، ص ١٠، ١١.
- (٣) انظر: السابق، ص ١٠.
- (٤) لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ٢٢٠٣م، مادة (حيا). وانظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق د/ عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، باب الحاء والياء.
- (٥) سورة العنكبوت، آية ٦٤.
- (٦) سورة فاطر، آية ٢٤.
- (٧) لسان العرب، ابن منظور، مادة (سلك).
- (٨) انظر: علم سلوك الحيوان، د/ جمعان سعيد عجارم، ص ٢.
- (٩) انظر: علم سلوك الحيوان، د/ جمعان سعيد عجارم، ص ٨: ١١. وانظر أيضا: سلوك الحيوانات وإدارتها، الجلسة العلمية الأولى، د/ ياسين العريفي، د/ محمد قناوي، ص ٢، ص ٣. وانظر أيضا: سلوك الحيوان، أحمد حماد الحسيني، مؤسسة هندواي، ص ٣٥: ٥٠.
- (١٠) أفاق جديدة للعلوم الإنسانية (علم النفس والإيثولوجيا)، فايز نايف القنطار، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، حولية ٢٦، الرسالة ٢٣٤، ٢٠٠٥م، ص ٢٠.
- (١١) انظر: أمراء البيان، محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٤٨م، ط ٢، ج ٢، ص ٣١١: ٤٩٣.
- (١٢) انظر: الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الأسرة، ج ١، ص ٥.
- (١٣) السابق، ج ١، ص ٢٧.
- (١٤) السابق، ج ١، ص ٣٠.
- (١٥) انظر: لغة الحيوان، يوسف عز الدين عيسى، عالم الفكر، المركز الوطني للثقافة والفنون، مج ٧، ع ٢، ١٩٧٦، ص ١٦٠: ١٦٢.
- (١٦) معجم المصطلحات العلمية في الأحياء الدقيقة والعلوم المرتبطة بها، د/ محمد الصاوي محمد مبارك، مكتبة أوزوريس، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص ١١٢. وانظر: رعاية الكلاب (تناسلها- صحتها- فسيولوجيتها- تناسلها- تغذيتها)، د/ عبد الحميد محمد عبد الحميد، دار الكتب، ١٩٩١م، ص ١٠.
- (١٧) حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين محمد بن موسى الدميري، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، ج ٣، ص ٥٨٧.
- (١٨) انظر: الحيوان، للجاحظ، ج ٢، ص ١٩٤. وانظر أيضا: الإيثولوجي، إيجور إكيوشكين، ص ١٢٧.
- (١٩) الحيوان، الجاحظ، ج ٢، ص ٧٣.
- (٢٠) ديوان، الأفوه الأودي، تحقيق د/ محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط ١، ١٩٩٨م، ص ٦٢.
- (٢١) الهيدب: السحاب المتدلي. اللجة: (يفتح اللام) الجلبة وكثرة الأصوات. يتلجج: يشرق.
- (٢٢) المزن: لسحاب أو ذو الماء منه. بنات الماء: الضفادع أو نوع من السمك. تمعج: تلوى وتثنى في الماء.
- (٢٣) مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مؤسسة الطبع والنشر، الأستانة، ج ٢، ص ١٦٦.
- (٢٤) السابق، ص ١٦٦.
- (٢٥) القاضي إياس بن معاوية بن قرّة بن إياس المزني، وهو اللسن البليغ والألمعي المصيب، والمعدود مثلا في الذكاء والفتنة، ورأسا لأهل الفصاحة والرجاحة، وكان يضرب به المثل في الذكاء والدهاء، وإياه عن الحريري في "المقامات" بقوله في المقامة السابعة " فإذا المعيتي ألمعية ابن عباس، وفراسي فراسة إياس"، وقد ولاه الخليفة عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة، وقد توفي إياس عام إحدى وعشرين ومائة كهلا. انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م، ص ١، ص ٢٤٧: ٢٥٠. وانظر أيضا: سير أعلام النبلاء، شمس الدين بن محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٩٦م، ج ٥، ص ١٥٥.
- (٢٦) الحيوان، الجاحظ، ج ٢، ص ٧٥، ٧٦. وانظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، ص ١، ص ٢٤٩.
- (٢٧) قصة هذا البيت رواها ابن قتيبة فقال: كان ابن عبيدة يذكر أن رجلين سافرا ومع أحدهما كلب له، فوقع عليهما لصوص، فقاتل أحدهما حتى غلب وأخذ فدفن، وترك رأسه بارزا، وجاءت الغريبان وسباع الطير فحامت حوله تريد أن تنهشه، وتقلع عينيه، ورأى ذلك كلب كان معه، فلم يذل ينبش التراب حتى استخرجه، ومن قبل ذلك قد

- فر صاحبه، وأسلمه قال: ففي ذلك يقول الشاعر:
يعرد عنه جاره ورفيقه وينبش عنه كلبه وهو ضاربه "
تأويل مختلف الحديث، أبو محمد بن عبد الله بن قتيبة، تحقيق أبو أسامة سليم، دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٢٦٩، ٢٧٠.
- ^{٢٨} الجبان: الصحراء. ركابه: الإبل.
- ^{٢٩} ربض: لازمه وأقام. طائلة: عداوة وثأر. دنيا: داني القرابة، لاصق النسب.
- ^{٣٠} حتى عليه التراب: رمي التراب عليه. كم: غطي. يرخم: يصوت ويعوي. حشاشة: بقية الروح.
- ^{٣١} فاستشالوه: رفعوه. متيامن: أي أخذ ذات اليمين. النجف: موضع بالكوفة فيه نخل كثير.
- ^{٣٢} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص١٢٣، ١٢٢.
- ^{٣٣} السابق، ج٢، ص١٢٣.
- ^{٣٤} السابق، ج٢، ص١٢٨.
- ^{٣٥} السابق، ج٢، ص١٢٨، ١٢٩.
- ^{٣٦} توصل باحثون من جامعة ستوكهولم بالسويد إلى أن الذئب تظهر المودة والاهتمام والحب تجاه القائمين على رعايتها، وبصورة تشبه إلى حد كبير ما تفعله الكلاب، وقام الباحثون في تلك الدراسة المنشورة في دورية باختبار (١٠) ذئب و(١٢) كلبا في اختبار سلوكي مصمم لاختبار ميزت الذئب بشكل عفوي بين شخص خصيصا لقياس سلوكيات التعلق لدى الكلاب، وخلال هذا الاختبار ميزت الذئب بشكل عفوي بين شخص مألوف وآخر غريب تماما كما فعلت الكلاب، وأظهرت المزيد من سلوكيات البحث عن القرب والانتماء تجاه الشخص المألوف.
- انظر: دراسة تعلق الذئب بمربيها كالكلاب، الوطن الإلكترونية، الأربعاء، ٢١ سبتمبر ٢٠٢٢م.
- ^{٣٧} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص١٢٠، ١٢١.
- ^{٣٨} انظر: استكشاف الآلة الحيوانية، إيفان بافلوف، ترجمة هشام الدجاني، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩، ص٧٢ وما بعدها. وانظر أيضا: نظرية الإشراف الكلاسيكي، د/ بدر الغامدي، ٢٠٢٣م، ص٣ وما بعدها. وانظر: سلوك الحيوان، أحمد حماد الحسيني، ص٣٨: ٤٢.
- ^{٣٩} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص١٢٩، ١٣٠.
- ^{٤٠} سلوك الحيوان، أحمد حماد الحسيني، ص٣٥.
- ^{٤١} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص١١٨، ١١٩.
- ^{٤٢} رعاية الكلاب، د/ عبد الحميد محمد عبد الحميد، ص٤٦.
- ^{٤٣} الإيثولوجي، إيجور إكيموشكين، ترجمة نجيب هزاع، ص٩٦.
- ^{٤٤} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص٢٠١.
- ^{٤٥} السابق، ص٢٣، ٢٤.
- ^{٤٦} ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق د/ بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠م، ص١٧٣: ١٧٥.
- ^{٤٧} العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ص١١٨.
- ^{٤٨} سورة الأعراف، آية ١٧٥، ١٧٦.
- ^{٤٩} الحيوان، الجاحظ، ج٢، ص١٥: ١٧.
- ^{٥٠} انظر: لهاث الكلب، د/ محمد بن إبراهيم، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة، ديسمبر ٢٠١٩م. وانظر أيضا: رعاية الكلاب، د/ عبد الحميد محمد عبد الحميد، ص٤٧.

المصادر والمراجع:

- استكشاف الآلة الحيوانية، إيفان بافلوف، ترجمة هشام الدجاني، وزارة الثقافة، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٩م.
- آفاق جديدة للعلوم الإنسانية: علم النفس والإيثولوجيا، فايز نايف القنطار، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة الكويت، حولية ٢٦، الرسالة ٢٣٤، ٢٠٠٥م.
- أمراء البيان، محمد كرد علي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٢، ١٩٤٨م.
- الإيثولوجي، إيجور إكيموشكين، ترجمة نجيب هزاع، مراجعة جلال عبد الفتاح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.
- تأويل مختلف الحديث، أبو محمد بن عبد الله بن قتيبة، تحقيق أبو أسامة سليم، دار ابن القيم- دار ابن عفان، ط٢، ٢٠٠٩م.
- حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين محمد بن موسى الدميري، تحقيق إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق.
- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الأسرة.
- دراسة (تعلق الذئب بمربيها كالكلاب)، الوطن الإلكترونية، الأربعاء، ٢١ سبتمبر ٢٠٢٢م.
- ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق د/ بهجت عبد الغفور الحديثي، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، ط١، ٢٠١٠م.
- ديوان، الأفوه الأودي، تحقيق د/ محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.
- رعاية الكلاب (تناسلها- صحتها- فسيولوجيتها- تناسلها- تغذيتها)، د/ عبد الحميد محمد عبد الحميد، دار الكتب، ١٩٩١م.
- سلوك الحيوانات وإدارتها، الجلسة العلمية الأولى، د/ ياسين العريفي، د/ محمد قناوي.
- سلوك الحيوان، أحمد حماد الحسيني، مؤسسة هنداوي.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين بن محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط،

- مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ١١، ١٩٩٦م.
- العصر العباسي الأول، د/ شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة.
- علم سلوك الحيوان، د/ جمعان سعيد عجارم.
- لسان العرب، ابن منظور، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- لغة الحيوان، يوسف عز الدين عيسى، عالم الفكر، المركز الوطني للثقافة والفنون، مج ٧، ٢٤، ١٩٧٦م.
- لهاث الكلب، د/ محمد بن إبراهيم إبراهيم، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ديسمبر ٢٠١٩م.
- مجمع الأمثال، أبي الفضل أحمد بن محمد النيسابوري الميداني، مؤسسة الطبع والنشر، الأستانة.
- معجم المصطلحات العلمية في الأحياء الدقيقة والعلوم المرتبطة بها، د/ محمد الصاوي محمد مبارك، مكتبة أوزوريس، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- معجم مصطلحات علوم الحشرات، د/ وليد عبد الغني كعكة، ٢٠٠٦م.
- مقاييس اللغة، ابن فارس، تحقيق د/ عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت.
- نظرية الإشراف الكلاسيكي، د/ بدر الغامدي، ٢٠٢٣م.
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٨م.